

الفصل الثالث عشر

بنو أمية ١٢٧ - ١٣٢ هـ (٧٤٤ - ٧٥٠ م)

(تابع ما قبله)

مروان الثاني — أخلاقه — التمرد — الثورة في خراسان — أبو مسلم
الخراساني — الثورة في فارس — انهزام نصر حاكم خراسان ومقتله —
موت إبراهيم الإمام العباسي — انهزام بني أمية في نهاوند — هزيمة
حاكم العراق — مبايعة السفاح بالخلافة — موقعة الزاب — انهزام
مروان — فراره — سقوط دمشق — انتقام الباسيين — موت
مروان — آخر حكام بني أمية — أسباب سقوط الدولة الأموية

مروان الثاني هو حفيد مؤسس الأسرة الحكيمة ، وقد سبق أن مارس الحكم في بلاد أرمينيا فأظهر في إدارة شؤونها نشاطاً وحزماً جديرين بالإعجاب ؛ ولما توارثه عنه أنه اشتبك في مدة حكمه مع بعض قبائل الشمال — التي كانت لا تقفأ تغير على الحدود الشمالية — في عدة معارك كان يهزمهم فيها دائماً ويفرق شملهم المرة تلو الأخرى . وقد أكسبته حياته الشاقة التي كان يزاومها في ميادين القتال قوة الاحتمال على شظف العيش حتى لقب بالحمار^(١) ، لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء ، إنما على سبيل المجاز ، إشارة لقوة عضلاته وإعجاباً بصلابته ؛ كذلك كان على تقيض أسلافه متقشفاً ورعاً يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشيء . لا يستطيع منحه لهم ، سواء أكان ذلك في وقت السلم أم في ميادين القتال . وكان يتناول أرزاقه كأبسط جندي متحملاً شظف العيش وقسوة الحياة في معسكره . ولما أفضى إليه الملك وانتقل إلى قصر الخلافة لم يأخذ قط بنصيب قليل ولا كبير من متع الحياة الدنيا المعروفة عن الخلفاء الأمويين . بل قصر همه على قراءة

(١) يلاحظ أن الحمار يمتاز بالصبر والاحتمال على الشدائد .

كتب التاريخ القديم الذى غالباً ما كان يتذاكره مع كاتبه الخاص أو أصحابه المقربين . وكان قد كبر سنه عند ما اعتلى عرش الخلافة^(١) ، ولكن خفة حركته فى القتال وسرعة انقضاضه على الأعداء الذين تألبوا عليه من كل حذب وصوب برهنتا على أن الشيخوخة لم تقل من عزيمته أو تنال من نشاطه ، بيد أن التفوق المسمى ليس وحده كل ما يجب أن يتصف به من يطمع فى الملك — ولا سيما فى مثل تلك الظروف — بل ثمة صفة أخرى يجب أن يمتاز بها الحاكم ، وعلى الأخص من يرغب فى إنقاذ دولة كالدولة الأموية من الانحلال الذى منيت به وقتئذ ، وهى الترفع عن العصبية القبلية ، ولكنها صفة كان يفتقر إليها بالضرورة مروان ومعظم أفراد بيته .

ولو وهب « مروان » بعد النظر واتساع أفق التفكير — وهما من أهم ميزات السياسى الحنك — ولو وهب كذلك حب المسألة التى بها وحدها كان يستطيع المحافظة على التوازن بين العناصر المتنازعة لتغير مجرى تاريخ آسيا ، وأصبح له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولكن صرامة خلقه وشدة شكيمته مضافتين إلى أبرز صفات الأمويين — وهما العناد والقسوة — زادت فى نقائصه وعيوبه ؛ فبدلاً من أن يحاول إطفاء نار الضغائن ونزع السخائم التى كانت تمزق شمل الشعب العربى ، رعى بنفسه فى عباب المنازعات القبلية بذلك الحماس الأعمى ، والسخط المتناهى ، اللذين عامل بهما اليمانيين ، فأثار دفين الأحقاد فى قلوب الطرفين ؛ كما زاد هجم الشعراء وتفاخرهم فى إضرار نار هذا التنافس القديم ، المصحوب بأخطاء العصر وحرزاته . وهكذا نجد الكهيت^(٢) أحد شعراء مضر ينظم قصيدة طويلة تسمى « بالهاشميات » يتغنى فيها بيسالة قبيلته ومناقب قومه مؤثراً بنى هاشم ، ومشيراً إلى الحن والأهوال التى نزلت بهم ، فيعارضه شاعر

(١) يقال إنه كان قد تجاوز الستين .

(٢) هو الكهيت بن زيد الأسدى من أسد مضر بن نزار .

يعنى يسمى « دعبل »^(١) بقصيدة يعرض فيها بالمضريين ، ويفاخر بآل حمير و ملوكهم ؛ فأخذت تلك الأشعار وغيرها تتناقل من المدن إلى الصحراء ، وألهبت أبياتها المليئة بالهجو والتفاخر قلوب البدو والحضر^(٢) على حد سواء ؛ فتحزبت الناس ، وتأصلت الضغائن بين الحميريين والمضريين .

وفي تلك الأثناء عمت بلاد المشرق الفوضى والارتباك ، فاعتزل الأتقياء الثورة ورجال العلم ميدان السياسة ، تاركين الشؤون العامة للسفلة الأنانيين والوصوليين ذوى المنافع الشخصية والمآرب الذاتية . وتوقع الناس الحراب الذى بدأت تظهر دلائله فى ذلك الحين . فلم يكد مروان يجلس على عرش الخلافة مدة طويلة من الزمن حتى انتقض عليه أهل حمص وفلسطين ، وخرج عليه الخوارج من مكانهم فى الصحراء معلنين حرباً شعواء على الدولة الأموية ، حاضين المسلمين على الدعوة إلى الحق . ومهما نقل فى عقائد هؤلاء الفلاة المتعصبين ، فلا يجوز أن نفعل عن أنهم كانوا مخلصين جد الإخلاص فى عقيدتهم ، صادقين فى دعوتهم وشعورهم ، دون أن يحسبوا حساباً للمصاعب التى تجابههم والأهوال التى تكتنفهم . وبرغم قلة عددهم نسبياً فقد استطاعوا اكتساح اليمن والحجاز والعراق والاستيلاء عليها ردها من الزمن . وقد أظهر « مروان » فى حروبه مع هؤلاء الثوار مقدرة غيبية فى القيادة ، وهمة فى الحركات العسكرية ، فهزم أهالى

(١) هو دعبل بن على الخزاعي وقصيدته هى التى مطلعها :

أفنى من ملامك يا ظمينا كفانى اليوم مر الأربينا

(المرب)

(٢) تذكر فيما يلى تعليق السعوى بهذا الصدد :

« وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجمدى وتمصبه لقومه من نزار على الين ، وانحرف الين عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية إلى بنى هاشم ، ثم ما تلا ذلك من قصة ممن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تمصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وقطعه الخلف الذى كان بين الين وربيعة فى القدم ، وفعل عقبة بن سالم بيمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كيدا لمن وتمصباً من عقبة ابن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان » .

حمص وفلسطين بالتتابع ، ثم سار إلى العراق ، وبعد حروب شديدة مع الخوارج أجلاهم إلى ما وراء نهر دجلة . أما في الحجاز فكان الخوارج قد استولوا بقيادة أبي حمزة على المدينة بعد مناوشة طفيفة مع أهلها ، ولكنهم مع ذلك عاملوم معاملته حسنة لم يعاملوم بمثلها الأمويون قط . وكانت اليمن وقتئذ في قبضة « داعي الحق » أحد عمال مروان ، وكان جندياً طائشاً زنديقاً على شاكلة فرسان أوروبا في القرون الوسطى ، ومما يؤثر عنه أنه صرح ذات مرة على الملاء بأنه لا يتقيد أبداً بأحكام القرآن الكريم ، فسار إلى هؤلاء الخوارج المغالين واشتبك معهم في عدة معارك هزمهم فيها وأجلاهم عن الحجاز واليمن ، فالتجأوا إلى حضرموت ، كما التجأ إخوانهم الذين طردوا من العراق إلى فارس حيث زادوا في عوامل الاضطرابات والمنازعات التي كانت سائدة وقتئذ في تلك البلاد .

وبعد أن ساد الأمن وانتشر السلم في هاتيك الربوع عين مروان الثاني « يزيد بن عمر بن هبيرة » أحد أتباعه الخلفيين والياً على المشرق ، ثم انسحب إلى قصره المحبوب في « حران » تاركاً شؤون الدولة لابنيه « عبد الملك » و « عبد الله » ، وظل هو مقيماً في قصره حتى استنجدوا به لقيادة الجيش الأموي في المعارك التي انتهت بقتله وسقوط أسرته .

وفيما كان مروان يحمل حملاته الصادقة على الثائرين في الشام ، ويكافح الغلاة المتعصبين في العراق وجزيرة العرب ، كانت الضغائن بين مضر وحمر يشتد سميرها فتعمل على تقويض دعائم الإمبراطورية الأموية في آسيا . ولما كان « نصر » حاكم خراسان من بني مضر ، فقد خرج عليه الحميريون وثاروا ضده . كما انتهز دعاة العباسيين ذلك التنافس المتأصل بين القبيلتين المتحكمتين في رقاب العالم الإسلامي ، وراحوا يضربون على وتر العصبية القبلية ، ويشعلون نارها لكي ينفجر السخط الذي كان أشبه بمنجم البارود فيدك عرش بني أمية

دكا . وقد كان « أبو مسلم الخراساني » - زعيم الثورة - أليق رجل للنهوض بهذا العمل الذي أناطه به الإمام العباسي .

الثورة في
خراسان

كان أبو مسلم يبدو مجرداً من الإحساس ، فلا يبدو على ملامح وجهه ما يكشف عن دفين سره ، كذلك كان يخفي في صدره قلباً قاسياً لا يرحم ولا يلين ، حتى لم تكن أشد الحوادث خطراً وأعظمها هولاً لتعرف قط سبيلاً إلى فؤاده ، ولا تؤثر على ملامحه الهادئة ، فكان يتاقى بشار النصر الباهر من غير أن يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الغبطة والسرور ، كذلك كانت أعظم الكوارث هولاً وأشدّها فشلاً لا تحرك له ساكناً . وعلى الجملة كانت أعصابه كأنها قدت من الفولاذ ، فلم يفقد قط سيطرته على نفسه في أخرج المواقف ؛ كذلك كانت دماثة خلقه ورقة شائلة تجذب إليه قلوب أعدائه وخلصائه على حد سواء ، بينما كانت كفاءته العسكرية ونبوغه في تنظيم الجيوش وإدارة الشؤون العامة تسترعى الإعجاب والفخر . والحق أن المهارة « المكيافيلية » التي استعملها في الضرب على وتر العصية القبلية بين مضر وحمير ، والمداء الذي كان يملأ قلوب الفريقين هما اللذان مكناه من تنفيذ خطته .

قد أتينا فيما سبق على وصف الدعاية العباسية ، وأبنا كيفية انتشار نفوذها شيئاً فشيئاً . ونقول الآن إن تحريم الأئمة استعمال القوة كان مبدأ يتمسك به كثير من أشد أتباعهم تصوفاً ، غير أن هذا الحرمان أوجد رغبة في التطلع إلى الزعامة في مجال آخر للقضاء على الدولة الأموية ، ولكن هذه الأسباب وحدها ليست كافية لتبين لنا مبعث الثورة التي رفعت العباسيين إلى عرش الخلافة بهذا النجاح المنقطع النظير ، بل لعلها ليست كافية أيضاً كفاية تامة لتقويض دعائم البيت الأموي في عهد قائد محنك وجندى مدرب كروان . إنما السبب الحقيقي في تأسيس الدولة العباسية هو الصبغة التي صبغ بها الحجاج الحكم في ذلك الزمان ورغم محاولات عمر الثاني وجهوده فقد ظل هذا المبدأ هو السياسة التقليدية

المتبعة في البيت الأموي في عهد الخلفاء المتأخرين — سياسة الجور وعدم اتصال العمال والأمراء بالشعب المؤلف من مختلف الأجناس — فضلا عن أنه لم تكن نمة أوشاج تربط بين قلوب هؤلاء وبين قلوب الحكام والأمراء .

أسبابها

كان العرب بافتخارهم بقوميتهم يترفعون عن الوطنيين ، وينظرون إلى غيرهم بالرغم من التعاليم الإسلامية نظرة السيد إلى المسود مما أدى إلى تدمير أهل البلاد الأصليين . ومع أن الوظائف الصغيرة في الدوائر المالية والإدارية كانت معظمها في أيدي أبناء الفرس ، إلا أن وظائف الجيش الرئيسية ومناصب الدولة الكبرى كانت موصدة الأبواب دونهم ، وكانت الأمم المغلوبة إذا ما التجأت إلى القرآن الكريم تستشهد بآياته^(١) عما جاء فيها من الدعوة إلى المساواة والإخاء ، كان العرب إما أن يقابلوا تلك الحاجة بشيء من الازدراء ، أو أن يتمسكوا من الرد عليها بالراوغات والمباحكات ، وباستثناء النفر القليل الذي قيد اسمه في سجلات عمر بن الخطاب ، وباستثناء الذين امتازوا بخدمات جليلة للدولة فقد كان جميع أهل البلاد المغلوبة محرومين من الاشتراك في الحفلات العامة ، أو الاشتراك في مباهج الحكام ؛ كذلك كانوا يتركون وشأنهم في زوايا النسيان تأكل قلوبهم الفيرة والحسرة على مجدهم الضائع وعزيم التالد . ومع ذلك فقد كان عرب الشام من مضربين وحيرين منهمكين في خصوماتهم القبلية ، فلم يشعروا كثيراً بالزوبعة التي كانت تعصف حولهم . وقد أثار عجز السياسيين في الحكم والتعصب للقومية شعوراً قويا في قلوب أهل فارس بأنهم ضحايا الظلم ومنكوبى الاستعمار . ولم يكن ينقص إضرام نار الثورة الوطنية غير « كلمة

(١) جاء القرآن الكريم في هذا المعنى : « يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
وفي الحديث الشريف « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » . « والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسمى بعضهم أذانهم وهم يد على من سواهم » .
(العرب)

التعارف» وقد وجدت الآن في عبارة الدعوة «لآل البيت»، وأصبحت نداء متعارفا تستر وراءه الشعوب المغلوبة في المشرق للم شعثها وجمع كلمتها. ولم يكن الحميريون والحجازيون والمراقيون في خراسان أقل سخطاً وتذمراً من أهالي البلاد الأصليين، إذ كانت القبيلة التي تستولى على الحكم — كما هي العادة دائماً — تحاول الاحتفاظ بنفوذها، وتحول دون اشتراك الفئات الأخرى في السلطة، مما ولد الحسد والنزاع بين القبائل العربية. وفي تلك العناصر الساخطة أنى أبو مسلم الخراساني أمنيته المنشودة لكي يتكأ عليها في إضرام نار الثورة، وأصبحت خراسان معقل التشيعين لآل العباس.

كان «نصر بن سيار» عامل خراسان إدارياً حازماً وسياسياً قديراً، ولو قدر له أن يحكم تلك البلاد في ظرف آخر غير ذلك الظرف لاستطاع بما وهب من مقدرة وكفاءة، أن يؤثر عليها تأثيراً حقيقياً ويطبعها بطابعه الخاص، ولكن الثورة صرفته عن إظهار نبوغه، فراح يبذل قصارى الجهد في سحق الفتنة اليمنية التي كان على رأسها «الكرماني»، بينما كان الخليفة من جهته يحارب الخوارج في المغرب. ولما رأى أبو مسلم ضعف الحامية العربية وقلة عددها أصدر بيانه المشهور بإعلان الثورة التي طال الأمد على تديرها. وكان السبب الذي عزاه إليه الدعوة هو استرداد حقوق «آل البيت» من الأمويين المقتصبين، فكفلت له عبارة «آل البيت» المبهمة المغرية التي ادعى بأنه من أنصارها مؤازرة متشيعي العلويين. وعقد الاجتماع الأول في ٢٥ رمضان عام ١٢٩ هـ، واستدعى الناس بإضاءة المشاعل الكبيرة على قم التلال، واحتشدت الجماهير الغفيرة متشعة بالسواد، دلالة على حزنهم على زعمائهم الذين قتلوا غيلة أو جندلوا في الميدان، وهرعت هذه الجوع الزاخرة إلى تلبية الدعوة؛ ولم تك تنقضى بضعة أسابيع حتى أخذت الرايات السوداء التي أطلق عليها اسم «السحاب» و«الظل» تنتشر من مدينة إلى أخرى يحملها التشيعيون في سيرهم نحو المغرب؛ فطردوا

الحاميات الأموية من « هراة » وأما كن أخرى في المشرق . كما أدى مقتل « الكرماني » زعيم الثوار المضربين إلى التحاق أولاده « بأبي مسلم » فاستطاعا بتوحيد قوتيهما طرد عامل خراسان « نصر بن سيار » من مدينة « مرو » .

ولما رأى عرب خراسان المنشقون على أنفسهم انتصار بني هاشم وانتشار سلطانهم تنبهوا فجأة إلى الخطر المحدق بهم وحاولوا تأسيس شبه اتحاد فيما بينهم ، ولكن الأمر كان قد انقضى وسهم القضاء قد نفذ ، فاستعالت تلك الحركة إلى ثورة جاححة انخرط في عقدها عدد كبير من زعماء عرب الحجاز والعراق ، وأصبح موقف العامل السيئ الحظ حرجاً جد الحرج ، إذ لم يستطع وحده مقاومة قوات أبي مسلم التي كانت تتزايد بمضى الزمن ، فاستنجد بالخليفة ولكنه لم يتلق منه جواباً شافياً ، إذ كان هو نفسه منهمكاً في حروب الخوارج في الجزيرة . وقبل أن يفادر نصر بلدة « مرو » رفع ندائه المؤثر إلى مروان يطلب فيه المساعدة مبيناً أن الثورة لازالت في مرحلتها الأولى ، وأنه من اليسور حصرها وإطفائها ، ثم فرج عن كربه بتلك الصيحة اليائسة التي ظلت تدوى في أجواء العصور وهي ^(١) :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكي وأن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولي على الإسلام والعرب السلام
وتلبية لهذا النداء الحار أمر « مروان » عامله في العراق أن يسارع إلى مساعدة « نصر » ؛ ولكن « فرغانة » و « خراسان » كانتا قد أسلمتا

(١) آثرنا أن نورد الآيات بينها ، وإن جاءت شراً مقتضياً في الإنكليزية .

(الحرب)

« لأبي مسلم » فازدادت بهما مصادره المادية والمعنوية . وليس أدل على عبقرية هذا الرجل وبعد نظره من توفقه في اختيار الأنصار الذين كانوا من أقدر أهل العصر ، ومنهم « قطبة بن شبيب » من أهل الحجاز ، الذى تعقب « نصرًا » إلى جورجان واضطره أن يلتجئ إلى « بلاد الجبل » حيث توفى في طريقه ببلدة « ساوا » وعمره ٨٥ سنة .

وفىما كانت تلك الحوادث تجرى في المشرق كان مروان يحاول معرفة اسم « الهاشمى » الذى قامت الثورة من أجله . أما أحفاد العباس فكانوا وقتئذ يعيشون في قرية تعرف « بالحريمة » بجنوبي فلسطين . وما أن علم الخليفة أن أصل ذلك البلاء هو « إبراهيم » الملقب « بالإمام » حتى أمر بإلقاء القبض عليه وزجه في سجن حوران مع رهط من الهاشمين وبعض أعدائه الأمويين ، ومن جملتهم « عبد الله بن عمر الثانى » و « العباس بن الوليد الأول » اللذين اشتبه في إخلاصهما . غير أن حبس « إبراهيم » لم يحل قط دون تقدم جيش « أبى مسلم » إذ لم ينقض طويل وقت حتى اشتبك الفريقان في معركة رائعة في « جورجان » وكان يقود الجيش الأموى « نصر بن سيار » ، بينما كان يقود الثوار « قطبة ابن شبيب » فأسفرت المعركة عن هزيمة « نصر » هزيمة منكرة ، وتقدم قطبة بجيشه إلى الغرب وبصحبه « خالد بن برمك » الذى أصبح لأولاده فيما بعد شأن عظيم في تاريخ العرب وآدابهم ، وكانت البلاد وقتئذ تعصف بها ريح الفتن والفوضى ، فلما غشى « قطبة » مدينة « الرى » وطد الأمن في ربوعها ، ثم أنفذ ابنه « الحسن » و « أبا عون » الفارسي على رأس جيش كبير اكتسحا به الجيش الأموى ومتهوسى الخوارج ، وظلا يواصلان زحفهما حتى اقتربا من مدينة « نهاوند » وهناك حاصرا حاميتها . وفىما كان « عبد الله بن مروان » و « يزيد »^(١) عامل العراق يزحفان على تلك المدينة على رأس جيشهما كان « قطبة » يشدد

(١) هو يزيد بن عمر بن هيرة الفزارى . (الحرب)

الحصار على تلك المدينة حتى فتحها عنوة ، وعندئذ سارع إلى إرسال « أبي عون » لمهاجمة « عبد الله بن مروان » كما تصدى هو « يزيد » الذي كان معسكراً في جالولاء ، ثم سار إلى الكوفة عاصمة العراق . ويقول الرواة أن « يزيد » عند ما بلغه خبر زحف عدوه حاول أن يصدّه ، ولكنه كان قد انتهى إلى الفرات ، وعندئذ اكتفى يزيد بالعبور وعسكر على بضعة أميال من جيش « قحطبة » ، وهناك تقابل الفريقان في البقعة التي قتل فيها « الحسين » ، ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الجيش الأموي ، كما خسر العباسيون قائدهم الذي ولى ابنه أمر القيادة في الحال وهجم على الأمويين يشخن فيهم القتل حتى أجبر يزيد أن يتقهقر إلى واسط^(١) كذلك لم تلبث الكوفة أن أذعنّت بالتسليم دون مقاومة تذكر . ويقال إن مروان حينما بلغه خبر هذه الكارثة خرج عن وعيه ، وراح يرتكب أروع ضروب السفك ، كما أنه لم يكده يعلم بخبر المكاتبة التي كانت تجري سرّاً بين « إبراهيم » وبين « أبي مسلم الخراساني » حتى أمر بوضع رأس إبراهيم في جراب ملآن بالنورة حتى زهقت روحه ، وبقتل المسجونين^(٢) الآخرين . ويؤثر عن « إبراهيم » أنه قبل أن يلاقى حتفه على هذا النحو أوصى لأخيه « أبي العباس عبد الله » الذي أقسم لينتقم لأخيه شر انتقام ، وقد بر بوعده وارتكب في تنفيذ ذلك أروع أنواع السفك حتى لقب « بالسفاح »^(٣) ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد . ولما قتل إبراهيم فرأه

(١) مدينة بناها « الحجاج بن يوسف » وسميت كذلك لتوسطها الطريق بين الكوفة والبصرة .

(٢) وعلى مسيرة يوم منها قرية اسمها أم عبيدة فيها قبر ولى الله أحمد الرافعي قطب الطريقة الرفاعية — وولد فيها أبو الفرج الجوزي إمام عصره في الحديث . (المعرب)

(٣) يقول ابن الأثير : « إن إبراهيم توفي إما تحت أقباض البيت الذي انهار عليه ، أو دس له السم في الحليب ، كما أن الباقيين توفوا بالطاعون . ولعل الرواية الأخيرة صحيحة » .

(٤) من المرجح أنه سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : « فأنا السفاح المبيح والثائر المنيع » . (المعرب)

إلى الكوفة حيث ظلوا مختبئين في إحدى دورها حتى فتحها « حسن بن قحطبة » ولم يكن قد أذيع بعد الغرض الأساسي من الحركة التي حملت أهل فارس على التخلص من نير الأمويين ، إذ أن عبارة « آل البيت » كانت وحدها قينة يجذب الناس على اختلاف طبقاتهم حول العلم الأسود المشهور ، واسترعاء عطف الشيعة وتقديرهم .

وتقول الرواية العربية إنه لما غشى « حسن بن قحطبة » الكوفة كان يصحبه « أبو سلمى الخلال »^(١) الذي يقول فيه صاحب روضة الصفا : « كان يلقب بوزير أحفاد النبي » . ويظهر أنه كان يدعى لنفسه الولاية على الشيعة من غير علم زعيمهم بذلك ؛ فاستقبله القائد العباسي بضروب الحفاوة والتقدير ولثم يديه ، ثم أخبره أن « أبا مسلم الخراساني » أمره بإطاعة أوامره ، وعندئذ خرج الاثنان معاً إلى المسجد ، ونودي الصلاة جامعة ، فظهرت الكوفة متسحة بحلة غربية كما تجمع أهلها في المسجد مرتدين الملابس السوداء — شعار بني العباس — لسماع الخطبة التي طال أمد انتظارهم لسماعها ، وفي الميعاد المضروب ظهر أبو سلمى مرتدياً هو أيضاً الملابس السوداء ، ولم يكن أحد غير النقباء يعلم بأن الرجل قد اعتنق الفكرة العباسية وضحى بمصالح أسياده ، وبعد الصلاة اعتلى « أبو سلمى » منصة الخطابة ووفق يشرح للناس سبب الاجتماع منوهاً بفضل أبي مسلم الخراساني حامى حمى الدين ، ومؤيد حقوق آل البيت ، ومسبب سقوط الدولة الأموية من شاهق عزها ، ثم ختم كلامه بقوله : « إنه لا يرى من هو أحق وأنبل من « أبي العباس » لهذا المنصب الخطير » .

ومما يجدر ذكره أن العباسيين كانوا في تلك اللحظة الرهيبة يشكون في مصير الاجتماع ، وما عسى أن يفضى إليه ، إذ كانوا في الواقع يخشون ألا يوافقهم أهل الكوفة على خيانة آل البيت . ولكن الكوفيين أيدوا القول المأثور

(١) اسمه حفص بن سليمان .

عنهم بتقلب الأهواء . فلكم ثاروا في سبيل إعزاز قضية آل البيت ، ولكن خدعوا أصحاب تلك القضية بعد أن تعهدوا لهم بمساعدتهم ؛ وهام الآن يتأثرون بنزوة الساعة ويبرهنون من جديد على أنهم في خيانة أية عقيدة لا يقلون حماسة عن الذود عنها والاستماتة في سبيلها .

مبايعة السفاح

ولم يكذب « أبو سلمى » ينتهي من تزكية « أبي العباس » حتى صاح جميع من في المسجد بصوت واحد « الله أكبر » دلالة على التأييد . وفي الحال أرسلوا في طلب أبي العباس الذي ما إن وصل إلى الجامع حتى هبت الجماهير تسلم عليه بالخلافة ؛ وعندئذ اعتلى المنبر وألقى الخطبة التقليدية ، وهكذا نال « بنو العباس » السلطة ، واستولوا على الحكم على حساب « أولاد فاطمة » الذين عوملوا على أيديهم فيما بعد معاملة من معدن آخر .

وفي تلك الأثناء أخذت الحوادث تقع سراعا في الشمال حيث التحم « أبو عون » بجيش ابن مروان في « شهرزور » شرقي الزاب ، وأنزل به خسارة فادحة . أما « مروان » فكان قد عبر دجلة في ١٢٠ ألف مقاتل ، وتوجه صوب الزاب الكبير حيث التقى بجيش « عبد الله بن علي » أحد أعمام السفاح في قرية تعرف « بالكشاف » ، ويقال إنه كان قد عقد جسراً على النهر ، وتقدم بشجاعته المعهودة إلى القتال .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن جنود « السفاح » كانوا متشعنين بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين ، كما كانت خيولهم وجمالهم متشعة بالسواد ؛ وبهذا اللباس الغريب طفقوا يسرون في صمت موحش كأنهم يمشون في موكب إحدى الجنائز ولا مشاحة أن هذا المنظر الشاذ أربح جنود الشام ، ووقعت في تلك اللحظة حادثة مشثومة زادت في هلمهم ، إذ بينما كانوا متراصين يترقبون أوامر ضباطهم اتفق أن طار عليهم سرب من الغرايب كالسحب السود ، ثم حط على رايات الجيش العباسي ، ولم يفكر « مروان » قط في هذه الحادثة ، ولكنه نظر إلى

أصحابه الحاربيين ، فألقاهم قد استشعروا الجزع ؛ ومع ذلك فقد انتصر في أول معركة اشتبك فيها بنفسه مع جيش « عبد الله » ، واستطاع أن يزيج العباسيين عن مواقعهم ، ولكن « أباعون » أمر جنوده بالترجل ، وأخذ « عبد الله » يحرضهم على الأخذ بثأر ابن أخيه « إبراهيم » ، ثم ناداهم بقوله : يا أبطال فارس المغاوير ! يا محمد ! يا منصور ! وفي الحال رددوا نداءه بصوت عال ، وحلوا على خصومهم حملة صادقة . أما مروان فكان يهيب برجاله أن يحافظوا على سمعة بيته ، ولكن نداءه ذهب نفخة في رماد ، إذ لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام ضربات العدو القاسية . وفي نهاية المعركة شوهد حصان مروان يركض في الميدان من غير صاحبه .

موقعة الزاب
وهزيمة مروان

ختمت هذه الموقعة التاريخية التي دارت في إحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية مصير الدولة الأموية ، وفر مروان إلى الموصل فنعه أهلها من الدخول إليها ، فتوجه صوب حوران حيث مكث مدة يسيرة محاولا جمع جيش آخر ، بيد أن العباسيين الفلاط الأكباد كانوا يتعقبونه أينما سار ، ففر منهم إلى حمص ثم دمشق . ولما رأى أن الخطر يدامه وشيكاً أسرع إلى فلسطين ، ولكنهم كانوا يلاحقونه من غير ما شفقة ورحمة ؛ وبالأخص « عبد الله بن علي » الذي سار في طلبه . وكانت الموصل وحوران ، وحمص قد قدمت طاعتها إلى السفاح بغير قتال ، وأبدى الأمويون في دمشق شيثاً من المقاومة ، ولكن جيش العباسيين اقتحم المدينة وفتك بها كما « صهر مروان » ، وبذلك سقطت حاضرة الشام وعاصمة الإمبراطورية في أيدي العباسيين . وفي ٥ رمضان عام ١٣٢ هـ أي بعد خمسة أشهر من رفع العلم الأسود على دار الحكومة في الكوفة وثلاثة أشهر من موقعة الزاب أخذ العلم العباسي يخفق على القصر الأموي .

ولم يقتصر « عبد الله بن علي » على إنزال أروع ضروب السفك بالأحياء ،

مما لم يسبق له مثيل قط في التاريخ ، بل أمر أيضاً بنش القبور وحرق العظام وذر رمادها في الهواء^(١) ، ثم أخذ يتعقب « مروان » الذي كان قد عقد النية على الرحيل إلى إحدى مدن الروم ليستنجد بملكها قسطنطين ، وكان قد قرأ قصة ملك الفرس الذي استنجد بالإمبراطور البيزنطى ليرد إليه ملكه ، ولم يكن ليشك قط في الحصول على مثل تلك المساعدة ، غير أن بعض مشيريه^(٢) الذين لم يتخلوا عنه في وقت محنته أقنعوه بالإقلاع عن تلك الفكرة ، وأشاروا عليه بالارتحال إلى مصر أو أفريقيا ، حيث يستطيع حشد جيش آخر يحتمل به الإمبراطورية الشرقية ، أو تؤسس حكومة جديدة قوية الدعائم في المغرب ، فأسرع إلى الفيوم إحدى مديريات مصر العليا ، ولكن عبد الله بن علي كان قد أرسل أخاه صالحاً مع أبي عون لتعقبه ، فأدركه أبو عون عند القسطنطينية كنيسة صغيرة في بوسير على الساحل الغربى من النيل حيث كان مضطجعاً يستريح من وعثاء السفر .

ولما بصر مروان بأعدائه صمم على أن يكافح حتى آخر نسمة من حياته مؤثراً الموت على الاستسلام ، وهجم عليهم شاهراً سيفه فأصابه أحدهم برمح خر على أثره صريعاً . وهكذا قتل فرد من أشجع وأفضل أفراد هذا البيت ، وبموته انتهت الدولة الأموية . وأمر السفاح الذى لقب « بالمنتقم للبيت الهاشمى » بتعقب الأمويين وتقتيلهم بكل قسوة إشباعاً لحقده الوحشى المجرد عن كل عاطفة إنسانية ؛ فكانت تضرب رقاب الذكور أينما وجدوا ، وبثت العيون والأرصاد للبحث عنهم تحت الخرائب وفى بطون المغائر وعلى رؤوس التلال . ولا نعرف لهذه المذابح مثيلاً غير حرب الورود التى استؤصلت فيها شأفة أسرى برمتها .

قتل مروان في
٢٦ ذى الحجة
سنة ١٣٢ هـ

(١) يقول ابن خلكان : « إن الأعمال الوحشية التى عامل بها الأمويون زيدا وابنه دفعت بعبد الله بن علي إلى الأخذ بالتأثر » .

(٢) اسمه إسماعيل بن عبد الله القشيري . (المغرب)

وعلى ضفاف نهر « أبي فطرس » بفلسطين استقدم « عبد الله بن علي » نجوًا من ثمانين رجلاً من أقارب مروان إلى خيمته بعد أن كفل حمايتهم ، ولكنه لم يلبث أن فتك بهم من غير ما رحمة ولا شفقة ، طلى أن كثيراً من بني أمية استطاعوا الفرار من تلك المذابح الدامية ، ولم يظهروا إلا في زمن خلفائه الذين نالوا في عهدهم شيئاً من الرعاية والعطف ؛ ومن بين هؤلاء الذين نجوا من تلك المذابح « عبد الرحمن » حفيد هشام الذي ارتحل إلى الأندلس وأسس هناك دولة باسمه . أما بنات مروان اللواتي كن معه وقت مقتله فقد أرسلن إلى « حران » مع أفراد الأسرة الآخرين ، وهناك عاشوا في بؤس شديد وفقير مدقع حتى اعتلى « المهدي » عرش الخلافة فأسبغ عليهم العطايا وخصص لهم الأرزاق التي رفعتهم من وهدة الفقر إلى المراكز الجديرة بهم .

وبموت مروان انتهى حكم البيت الأموي في المشرق ، ويعد بعض خلفائهم ولا ريب من العطاء كما كان البعض الآخر لا يقل عن معاصريهم في العرب قسوة وشرا ، ويمكننا أن نسمي عمر الثاني « ماركس أورليوس » العرب إذ جاء قبل أوانه ؛ ويعد الوليد الأول وهشام من أهل الكفاءة والأمانة التواقين إلى النهوض بشعبهم إلى مدارج الرفاهية والنجاح . ولقد كان مروان نفسه — لولا نهايته المفجعة — يستطيع أن يتخذ محله في الصف الأول بين ملوك العالم نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والحكمة ، ولكنهما صفتان كما يقول ابن الأثير لم يجدياه نفعاً . وقد استعرض أحد أفراد بني أمية ممن كان يشغل منصباً كبيراً في تلك الدولة أيامهم الأولى بعد أن فلت الحكم من أيديهم وأتى على أسباب سقوط الحكم الأموي فقال : « إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتحلوا عنا ، وخربت ضياعنا نفلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت

ظاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداءنا ففجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا^(١) .

وقد بلغت مدة حكم بني أمية من استشهاد الإمام « علي » إلى أن قتل مروان الثاني حوالي ٩١ سنة ، وبالرغم من ضروب الاضطهاد والتنكيل الوحشي والأنانية التي استعملت في الكفاح بين العباسيين والأمويين ، فقد خلق هذا التحول عوامل أعانت على بث روح جديدة في التطور العقلي في العالم الإسلامي وقدمت إلى العالم أجمع رجالا يعدون في مصاف الخالدين .